# النظام الاقتصادي
# ومدىٰ ارتباطه بالمنهج الرباني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد : فهذه مقدمة لبحوث كثيرة تبين نمط نظامنا الاقتصادي وأسسه ومعالمه .

من الحقائق الناصعة في المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية ، الاجتماعية والاقتصادية أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام الإلهي القائم على التوازن بين المصالح ، وإرادة الخير للجميع ، والبعد عن كل مايعكر صفو العلاقات الودِّية بين النَّاس ، ونبذ كل نوازع الشر والضرر وإيذاء النفس والغير ، فإذا اقترن حب الخير مع مقاومة ألوان الشر ، شاعت السعادة في أنحاء النفس وزوايا المجتمع ، واستتب الأمن ، وتحقق الاستقرار ، وعاش الناس في راحة واطمئنان . وأما إن استبد الجشع والطمع بالإنسان ، وطغت الأنانية ( حب الذات ) وساد الحرص على كسب المال من غير اعتماد على عنصر المشروعية ، عاش المجتمع في دوامة من القلق والاضطراب ، وكثرت حوادث الانتحار ، وافتقد الأمن الذي هو أساس الحياة الصحيحة كما نشاهد في عالم الغرب المعاصر ، حيث تنتشر الجريمة ، ويسود الفزع والترويع ، ولايطمئن الإنسان على حياته أو ماله أو عرضه ، وقد تواترت الأخبار بذلك ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

# التخطيط الاقتصادي المنحرف

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين المسيطرين على اقتصاد البلد ، في أي بلد عربي أو إسلامي ، طغت عليهم النزعة المادية ، وتراكمت في أيديهم الملايين ، وتحكموا في حركة السوق التجارية الداخلية والخارجية ، من غير هوادة ولارحمة ، ولا التفات لمبدأ مشروعية الكسب ، وكونه من مصدر حلال غير حرام ، فضلاً عن التَّورط في كثيرٍ من الشبهات التي هي أقرب للحرام .

إن المتأمل في واقع المسلم المعاصر ، التاجر ، والصانع ، والمزارع ، وصاحب المهنة الحرة وغيرهم ، يجد في سلوكه ونشاطه تناقضاً واضحاً أو انفصاماً مثيراً للتساؤل ، بين مايعتقد ويعلن تديُّنه به ، وبين عمله وتصرفه وتعامله مع الآخرين ، فليس واقعه معبراً عن التزام صحيح لقيم دينه الغالي عليه في الظاهر ، وشرع ربه الذي يجهل أو يتجاهل الكثير من أحكامه ، تراه يصلي ويصوم ويحج ويزكي قليلاً ، ويتحمس لمبادئ دينه ويدافع عنها دفاعاً كلامياً أو عاطفياً ، ولكنه يقترف كثيراً من المحظورات الدينية ، ففي سلوكه التجاري يغمض الطرف عن أكل الربا أو الفائدة ، أو يسهم في النشاط الربوي في كثير من معاملاته الداخلية أو الخارجية أثناء الاستيراد والتصدير والتأمين أو الضمان ، أو الاتجار بالسندات أو حسم ( خصم ) الكمبيالات بربح مؤجل أو منتظر ، أو يغش في بيعه ، أو يخالف كثيراً من أحكام الشريعة ، متأثراً بما عليه

عمل الناس ، دون بحث عن مدىٰ الحِلِّ أو الحرمة . وإذا سافر هذا التاجر أو السائح مثلاً خارج بلاده ، هان عليه التورط في كثير من المعاصي كتناول لحم الخنزير ، أو شرب المسكرات ، أو غشيان الفواحش ، أو اللامبالاة بعادات وتقاليد الآخرين ، وهو يدرك أنها مخالفة لحكم الله والدين .

وأكثر من هذا ربما يتأول لفعله المسوغات ، فيزعم الحِلَّ أو الإباحة ، بحسب مزاجه ، أو يتذرع بالحاجة أو الضرورة المبيحة استثناء ، أو يرىٰ أن من يتعامل معه غير مسلم ، فيستحل عرضه أو ماله ، أو أنه يقول برأيه : تحترم الأحكام في ديار الإسلام فقط دون ماعداها من بلاد الكفر ، أو أنه يجامل في فعله ، فيشرب الخمر في الضيافة ، أو يستحيي من الآخرين على موائد الطعام ، بإعلان أن دينه يمنع كذا أو يحرم كذا .

وهذا كله من وساوس الشيطان ، والتذرع بأوهىٰ الأسباب أو الأعذار ، والاتباع لمحض الهوىٰ والشهوة ، فإن شرع الله واحد لايتبدل ولايتغير بحسب الزمان أو المكان أو الأشخاص ، والحلال في دار الإسلام حلال في دار الحرب ، والحرام في دار الإسلام حرام في دار الحرب ، ولاتُحل دار الحرب ماكان أصله محرَّماً في دار الإسلام ، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

* * *

# منهجية الاقتصاد الإسلامي

ثم إن مبادئ القرآن المجيد أو أخلاقه هي دستور المسلمين في أي مكان وزمان ، سواء أكانت تلك المبادئ شخصية بحتة ، أم اجتماعية ، أم إنسانية عالمية ، لاتتبدل ولاتتلون ، ولاتتأثر بالظروف والأحوال والمعايير المصلحية إلا في الحدود المقررة لها في نطاق العبادات أو المعاملات على النحو المشروع ، وبشرط توافر ضابط الضرورة أو الحاجة شرعاً ، كالمرض أو السفر ، أو العجز الدائم ونحو ذلك من أسباب التخفيف التي لاتلغي أصل الحكم الشرعي ، وإنما تجيز الانتقال إلى بدائل وأحكام أخرىٰ تنوب استثناء عن الأحكام الأصلية .

* * *

## ضوابط التطور من منظور إسلامي

وبه يتبين أن الانتقال إلى البديل الاستثنائي مقصور النطاق على ضوابط الشرع وتقديراته ، كأن يترتب على تطبيق الحكم العام الوقوع في حرج أو مشقة أو ضرر ، أو تعرض للهلاك يقيناً أو ظناً ، وليس الأمر متروكاً للرغبة الذاتية أو الشهوة والهوىٰ ، وإخضاع الحكم لهذه المعايير أو المزاعم والرغائب الخاصة ؛ لذا أوصد الدين الحنيف كل منافذ الأهواء ، ليضمن سلامة المبدأ وهيمنته على كل أنحاء السلوك الإنساني في جميع الأحوال العادية ، التي ليس فيها عنصر الاضطرار أو الإكراه المادي أو الأدبي مثلاً . والضرورة : هي التي يترتب على عصيانها أو مخالفتها الوقوع في الحرج أو المشقة يقيناً أو ظناً . وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة ، التي تندد باتباع الهوىٰ والشيطان أو الاستجابة لحالات النزغ العارض ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١] وقال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وفي آية أخرىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

وقد أوضح القرآن بنحو صريح طريق الهداية وسبيل الغواية ، فقال الله عز وجل : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾

[محمد : ١٤] .

# اتباع الأهواء

ويحذر النبي ﷺ على الدوام من المظاهر المرضية المدمرة لبنيان الجماعة ومصلحة الأمة والفرد معاً ، ومن أخطرها اتباع الهوىٰ الذي يمكن أن يكون في هذا العصر : هو الظاهرة الغالبة في الأفعال والأقوال ، فقال عليه السلام : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتىٰ إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىٰ متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نجاة نفسك ، ودع العوامَّ ، فإن من ورائكم أياماً ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم »[1] .

وهذا داء الأمة الآن ، وفي شيوع هذا الداء خطر وضرر ومفسدة ، وكل ذلك يؤدي إلى إشاعة الفوضىٰ ، وترك النظام ، واضطراب الحال وتسلط الأقوياء ، وظلم الضعفاء ، وإثارة القلاقل ، وفقد الاطمئنان ، وانعدام الأمان .

* * *

(١) رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، وأبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن .

## الأصالة في انطلاقة الغد

وأما التزام المبادئ ومحبتها ، فدليل واضح على تحضر الإنسان وتمدنه ، وطريق لإسعاده وراحته وجلب الخير له ، إذ هو بأدنى تأمل صمَّام أمان ضد المخاطر التي تهدد بطريق مباشر أو غير مباشر مصالح الأفراد أنفسهم ، وإن بدا في الظاهر لأول وهلة عدم التأثُّر المباشر بمصلحة الشخص ؛ لذا كان لزاماً على الإنسان من أجل نفعه أن يكون احترامه لمبادئه نابعاً من قناعته الذاتية بجدواها وأهميتها ، وأنها في النهاية تنعكس آثارها عليه وتمس مصلحته ، إن عاجلاً أو آجلاً .

* * *

## ضوابط التقدم

ويحسن التذكير ببعض الضوابط والمبادئ ، وأهمها الالتزام بأحكام الحلال والحرام شرعاً ، والصدق في القول والعمل ، والأمانة في كل شيء ، والوفاء بالعهد والوعد . وهذه المقومات أو أغلبها كانت معايير إرساء معالم النهضة الحديثة ، لترجمتها إلى أنظمة وقوانين ، أو جعلها أعرافاً اقتصادية ، أو عادات متبعة لاتُخْدَش ولا تمس ، لأنها في الواقع تؤدي لتوفير السمعة الطيبة ، وكسب الثقة والشهرة ، والعناية بإتقان الأشياء وجودتها ، وتحقيق مردود أكبر أو أفضل في وسط يعتمد على المنافسة الحرة ، وتعدد المصانع ، ووفرة الإنتاج ، والهيمنة على نشاط السوق .

* * *

## الاقتصاد بالمفهوم الإسلامي الصحيح

أما ميزان الحلال والحرام : فهو في الإسلام قوام الشريعة ، وضابط التصرفات ، وأساس الأقوال ، وبه يتوافر عنصر الوازع الديني ، ورقابة الله تعالىٰ في السِّرِّ والعلَن ، ومنطلق كل نشاط . والتحليل والتحريم ليس متروكاً في شرعة القرآن للأهواء والأمزجة والعقول المحضة ، وإنما هو مقصور على الإله المشرع الذي يحقق المصالح العامة والخاصة للناس جميعاً ، لذا حذر القرآن من التشبه بأفعال الجاهلية ، فقال الله تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] .

* * *

# أخلاقنا الاقتصادية

وأما الصدق في القول والعمل ، مع الله تعالىٰ ، ومع النفس والآخرين ، فهو عنوان الرجولة والشجاعة ، والقوة والجرأة ، ومن مستلزمات الإيمان الصحيح بالله سبحانه ، لذا أمر الله به في كل حال ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . وكان عنصر الصدق محل سؤال وحساب ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٨] . وفي آية مشابهة : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٢-٣٣] . وواضح من الآيتين : أن الصدق دليل الإيمان والتقوىٰ ، وأن الدين المنزل هو الصدق المطابق للحقيقة ، وأن الكذب قرين الكفر والعصيان والضلال ومجافاة الحقائق .

وكذلك الأمانة شاملة جميع التكاليف الإلهية ، ومطلوبة في رعاية الحقوق ، وقاعدة لكل تقدم ، ومنجاة من سوء الحساب والمسؤولية . وضدها وهي الخيانة سبيل التردي والانحلال ، وتدمير الكيان ، وهز الثقة ، والإنذار بالخسارة المحققة ، لذا كانت الأمانة أعلىٰ درجات المسؤولية والتكريم الإنساني ، كما يتضح من الآية الشريفة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

والأمانة في كل شيء مطلوبة ، في الواجبات الدينية كالصلاة والصوم

والوضوء ، وفي الالتزامات الدنيوية من الوفاء بالعقود والعهود والكلام ، والودائع ، وفي الأنشطة الإنسانية المختلفة من أداء الوظائف والخدمات وممارسة المهنة ، والزراعة والصناعة والتجارة . ونظراً لخطورتها أخبر النبي ﷺ أن الأمانة أول شيء يرفع ، ويبقىٰ أثرها في قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمة ( أي الضمان ) ، كما أخبر أنها قوام الدنيا ، روىٰ الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كن فيك ، فلا عليك مافاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » . وأما الوفاء بالعهد أو الوعد : فهو قاعدة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، والمعاملات الداخلية والخارجية ، ولولاه لضاعت الثقة والطمأنينة بالناس ، والثقة أساس العطاء والأخذ ، لذا كان الوفاء بالعهد من أصول الإيمان ومقتضياته ، وقد أمر القرآن الكريم به في المعاملات المشروعة كلها ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة : ١] وقال سبحانه : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء : ٣٤] . وفي آية أخرىٰ جعل هذا المبدأ من أخص صفات المؤمنين فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ومن نقض العهد ، سقط من هيبة الله والناس ، واستحق العذاب في نار جهنم ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

وما أقبح ما صوّر به النبي ﷺ جزاء الغدر في قوله : « لكل غادر لواء يوم القيامة ، يُرفع له بقدر غُدرته ، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة »[1] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

# ما نهدف إليه

نستطيع بكل ثقة وحكم عقل سديد أن نجزم بأن مبادئ الإسلام الخالدة تهدف إلى إسعاد الفرد والجماعة ، وحماية مصلحة الإنسان نفسه سواء كانت شخصية ، كالصدق والصبر وحب الخير ، وجهاد النفس ، والهوىٰ والشهوة ، أو اجتماعية كالأمانة والإحسان إلى الناس ، والكلم الطيب ، والتعاون على البر والتقوىٰ ، أو إنسانية عالمية كالوفاء بالعهد والميثاق ، والحفاظ على الكرامة الإنسانية ورعاية حقوق الإنسان ، والدفاع عن حرمات الدين والأهل والبلاد ، والجهاد في سبيل الله ضد المعتدين ، وإيثار العدل والمساواة والحرية والسلام .

أما كون هذه المبادىء سبيلاً لإسعاد الفرد والجماعة ، فلأنها تقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال ، دون إفراط ولا تفريط ، فليست هي من أجل الفرد ومصالحه الذاتية فقط ، وإنما هي من أجل الجماعة أيضاً لمواءمتها بين المصلحتين : الخاصة والعامة ، وإيجاد التوازن بينهما ، فإذا تحققت المصلحة العامة ، كان الخير العام للأمة ، وللفرد أيضاً ، لأن مصلحته تنعكس عليها مصلحة الأمة ، وتعود رعاية المصالح العامة بالنفع على الإنسان ذاته .

* * *

## المثالية والواقعية

وليست هذه المبادئ نظرية مثالية ، وإنما هي واقعية ، توجبها ظروف الحياة ، ولولاها لجأر الناس بالشكوى والتبرم من سوء الأخلاق وإضرارها بكل شخص . وهي تنسجم مع الفطرة الإنسانية ، وتتناغم معها في كل أطوار الحياة ، وتتفق مع الاستطاعة والمُكنة الذاتية .

* * *

# النزعة العالمية الإسلامية

كما أن هذه المبادئ عامة شاملة ، غير مغلقة على مجتمع أو عنصر أو فئة أو جنس معين ، بل هي أيضاً إنسانية عالمية ، لاتقتصر على بلد أو إقليم ، كما هو الشأن في جميع الشرائع القرآنية ، قال الله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وأما حكم العقل بجدوىٰ هذه المبادىء وأهميتها ، فلا يختلف في شأنها عاقل ، لتحقيقها الخير للإنسان والأمة ، كما هي ميزة النسيج القرآني المعبر عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصّلت :٤١-٤٢] وقوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت : ٥٣] .

* * *